العرب والوحدة
متى يصبح استقلالنا ايجابياً

ان ما نعرفه[1] عن الأمم الحية المتوثبة للنهوض ان فعاليتها تتجاوز دوماً الحدود الرسمية الموضوعة لها، وانها تسعى لكي تحتال على هذه الحدود، وتعمل على تحويل الحواجز والعقبات القائمة في طريق نهضتها، الى وسائل وادوات تساعدها على الاسراع في السير، والاقتراب من الغاية. هكذا رأينا الأمة الالمانية التي كانت في مطلع القرن الماضي في وضع من التجزئة المفروضة، والانقسام المصطنع الى ممالك وامارات، يشبه وضع الأمة العربية في هذا العصر، تحتال على التجزئة التي ارادتها لها الدول الأجنبية فتقيم فيما بينها اتحاداً اقتصادياً لم يتناول في الظاهر غير ناحية الجمارك. ولكن سنوات معدودة لم تمض عليه حتى كان اكبر ممهد لوحدتها العسكرية والسياسية. كذلك رأينا هذه الأمة نفسها عندما خرجت مقهورة من الحرب العالمية الاولى يملي عليها غالبوها معاهدات تكبلها بأثقل القيود، وتحول بينها وبين استرجاع قوتها الحربية. ولكن الامة الالمانية عرفت كيف تجعل من قوى الامن

(١) ان النصوص التي يضمها (الباب الثالث)، تشكل وحدة متكاملة من حيث ارتباطها العضوي بنكبة فلسطين وبطبيعة مرحلة هزت الافكار والاوضاع والعروش فكانت الانقلابات والثورات والتصورات النابعة من عمق المأساة ومن ارادة التحدي والنهضة في الامة، فالقارىء يجد نفسه امام نظرة جديدة هي وليدة المرحلة الجديدة، وامام مفاهيم متميزة عن المفاهيم التقليدية.. فالحديث عن الوحدة قبل عام ١٩٤٨ لم يكن بالجذرية والثورية الصارمة كما عبر عنها مقال شباط ١٩٥٣ (ثورية الوحدة العربية) الذي كان واضحاً ان خلفيته نكبة فلسطين.. وهكذا النصوص الاخرى.

الداخلي المحدودة العدد جيشاً جراراً، وكيف تحوّل الصناعات المدنية الى معامل للسلاح وادوات للحرب.

تلك هي حال الامة التي تبلغ من الانسجام والوعي درجة تجعل الحكومات فيها ممثلة صادقة لارادة شعبها، او تفرض على هذه الحكومات ان تتقيد بارادة الشعب وتعبر عنها بصدق وامانة. ولكننا في وضعنا الحاضر نرى الحكومات العربية تقصر حتى عن بلوغ الحدود التي يضعها الأجنبي لنشاطها، وتعجز حتى عن استعمال الصلاحيات التي لايستطيع الأجنبي ان ينكرها عليها أو يجادلها فيها.

لقد وقف العرب بمجموعهم من تأسيس جامعة الدول العربية موقفاً يجمع بين الالم والأمل. لقد تألموا عندما وجدوا حكوماتهم تتناول أمر الوحدة القومية بروح ملؤها التردد والجبن فتتأثر بأوهام بالية واعتبارات سقيمة، وتخضع لمصالح وضيعة وانانيات عقيمة، وتذعن لارادة الاجنبي فتقنع من الوحدة بالقليل الهزيل، وبما كان ممكن التحقيق منذ ثلاثين عاماً على الأقل. . لو كانت القيادة الوطنية التي هي اليوم في الحكم اكثر وعياً وجرأة وتجرداً، ولكن ذلك كله لم يمنع العرب من ان يستبشروا بتأسيس الجامعة وينظروا اليها كخطوة اولى مباركة، لابد ان تعقبها خطوات واعتبروا أن النصوص مهما تكن فقيرة والاشكال مهما تكن ضيقة، فغنى الروح وحسن القصد والتدبير كفيلان بأن يتلافيا النقص ويعوضا عن القصور الظاهري.

الا ان الوقائع والحوادث التي مرت منذ تأسيس الجامعة العربية وما زالت تمر، توشك ان تمحو من نفوس العرب كل اثر للأمل والاستبشار وان تبدل نظرتهم الى تلك الجامعة تبديلاً كلياً. فالواقع الذي يتضح يوماً بعد يوم هو ان الجامعة ليست خطوة في طريق الوحدة العربية بل عثرة. ان ميثاق الجامعة العربية صورة ناقصة مشوهة لأماني العرب الحقيقية في الوحدة، لأنه صادر عن حكومات هي صورة ناقصة مشوهة لحقيقة الشعب العربي. ولكن هذا الميثاق بالرغم من جميع علله ونواقصه، قادر على تحقيق بعض الخير الأكيد لبلاد العرب، فيما لو استطاعت الحكومات ان تخلص له وتفيد من جميع امكانياته. وليس من يجهل ان الحكومات العربية لو ارادت ان تعمل شيئاً مجدياً لقضية فلسطين، ولو رضيت ان تنجد عرب افريقيا

الشمالية الذين يصارعون الاستعمار الافرنسي اعنف صراع، ويموتون بمئات الالوف دفاعاً عن عروبتهم لوجدت في ميثاق الجامعة ما يساعدها على نجدة فلسطين وعرب المغرب، او لوجدت على الاقل ان هذا الميثاق لايحول بينها وبين اداء واجبها.

ان ما يشكو منه العرب اليوم وما يقلق له فكرهم ويتألم وجدانهم، ليس هو ان يروا انفسهم اضعف من الدول الاستعمارية الكبرى واقل عدداً وسلاحاً، بل ان يروا انهم لايستطيعون ان يخشدوا ويستعملوا في مقاومة هذه الدول ما يملكونه من العدد على قلته، ومن السلاح على ضآلته. فالعلة الكبرى هي في ان العرب، مهما حاولوا، لايستطيعون ان يقفوا امام الدول المعادية لهم وجهاً لوجه، إذ أنهم يصطدمون دوماً بحاجز يحول بينهم وبين عدوهم: هو حكوماتهم. هذه الحكومات التي كان يقتضيها الواجب ان تتجاوز الحدود الموضوعة لنشاطها القومي، وتحتال على القيود المفروضة من الأجنبي، فاذا هي تضيف الى هذه القيود قيوداً اخرى تفرضها مصالح اشخاصها، وتنحصر في حدود هي اضيق من التي تضعها لها المعاهدات والمواثيق، واذا مهمتها تقتصر على مماطلة الشعب وتخديره وإلهائه عن عدوّه.

ان هذا الاستقلال الذي تستمتع به سوريا، لقد ساهم العرب جميعهم في تحقيقه لها. وانهم اليوم ليتطلعون اليها ويعقدون عليها الآمال. اما نحن ابناء سوريا العربية، فلم نناضل في سبيل الاستقلال، ولم نفرح بحصولنا عليه إلا لأننا نرى فيه واسطة وطريقاً الى تحرير الاقطار العربية وتوحيدها. ولكن حكومة سوريا لم تظهر حتى الآن من هذا الاستقلال الا وجهه السلبي. فالأجنبي قد جلا، ولكن جلاءه لايغني اذا لم يعن إزالة السدود التي كان يضعها في وجه الشعب واهدافه القومية. والشعب في سوريا لا يؤمن بالاستقلال الا اذا اتيح له ان يحقق ما يصبو اليه من نصرة اخوته في العروبة، في كل مكان تشكو فيه العروبة من الظلم. فمتى يكتسب استقلالنا هذا المعنى الايجابي القويّ؟

١٢ آب ١٩٤٦